تأسيس الأخلاق على العقيدة في الإسلام

حمدان بن محمد الحمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، أما بعد:

إن من يتأمل – في وقتنا الحاضر- حال كثيرٍ من أهل السنة في معاملاتهم وأخلاقهم، يرى بوناً شاسعاً وفرقاً واضحاً بين ما قرره أهل السنة في كتبهم، وتمثلوه واقعاً عملياً في سلوكهم وأخلاقهم، وما نراه اليوم من ضعف واضح وقصور بيّن في جملة من أهل السنة في عدم ترجمة كثير من الأخلاق الإسلامية عملياً في الواقع المحسوس.

ويرجع هذا إلى عدد من الأسباب من أبرزها سوء فهم البعض بأن التمسك بالعقيدة الصحيحة شيء والتخلق بالأخلاق الفاضلة شيء آخر.

ومن المقرر إنّ الإسلام عقيدةٌ ينبثقُ منها أعمال وأقوال وأخلاق وشريعة، وليس مجرد معرفةٍ ذهنية، وإقرار قلبي، ثم لا أثر له في أعمال العبد وأخلاقه، ومواقفه في حياته كلها. ولهذا أجمع السلف على أنّ الإيمان اعتقادٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح.

والإسلام في شموله وتكامله يعطي أنموذجا فريدا، حتى عدت خاصية من خصائصه وميزة من مزاياه، فقد شمل هذا الدين الإنسان كله؛ روحه ونفسه وعقله و جسمه، كما شمل سلوكه وفكره ومشاعره، كما شمل دنياه وآخرته، وليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بعقيدة الإسلام ولا تتصل عقيدة الإسلام به.

والعقيدة الصحيحة تستلزم التحلي بكل خلق فاضل والتخلي عن كل خلق ذميم، وذلك أن الأخلاق ترتبط بثلاثة أركان من أركان الإيمان هي محل إجماع الرسالات الإلهية وهي الإيمان بالله وبرسله وبالبعث، فمن ناحية الإيمان بالله فإن المسلم عندما يمارس الأخلاق الفاضلة ويجتنب الأخلاق السيئة يعتقد ويؤمن أن الله أمره بذلك فيمارسها على أنها جزء من إيمانه بالله أو أنها من لوازم إيمانه بالله وأن الله فرض عليه ذلك وألزمه به. ومن شواهد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[١] فجعل إماطة الأذى عن طريق الناس – وهو من الأخلاق النبيلة– شعبة من شعب الإيمان، وبوب أهل العلم الذين صنفوا في الإيمان وشعبه وخصاله على كثير من الأخلاق وعدوها من شعب الإيمان[٢]، بل إن المصنفين في الحديث بشكل عام يوردون تحت مسمى الإيمان كثيراً من الأخلاق على سبيل التمثيل أنها من شعب الإيمان وأجزائه..

وأما ارتباط الأخلاق بالعقيدة من جهة الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم فإن المسلم يمارس الأخلاق على أن الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حث عليها وبلغها عن ربه، فهو لاعتقاده بنبوة النبي– صلى الله عليه وسلم– وأنه مبلغ عن ربه –

(١) صحيح البخاري ٩ وصحيح مسلم – ٣٥ وصحيح ابن ماجه – ٤٨.
(٢) انظر كتاب البيهقي (شعب الإيمان) ومختصره للقزويني ص ١٢٥.

ومما بلغه وبيّنه الأخلاق - يمارس الأخلاق من هذا الجانب أيضاً، فمقتضى إيمانه برسول الله امتثال ما أمر به من الفضائل والابتعاد عن ما نهى عنه من الرذائل، بل ويمارس الأخلاق أيضاً على سبيل الاقتداء بنبيه المعصوم - صلى الله عليه وسلم - الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فتممها على أحسن وجه وأكمله، وكان خلقه القرآن، صلوات الله وسلامه عليه[1].

وأما ارتباطها بالإيمان باليوم الآخر فمن حيث الجزاء عليها ثواباً أو عقاباً، فيمارس الأخلاق الفاضلة مؤمناً ومعتقداً بأن الله سيثيبه عليها أجراً عظيماً، وأنها سبيل إلى الجنة، وفي الحديث: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا..)[2] ويبتعد المؤمن عن كل خلق ذميم ودنيء لأنه سيعاقب عليه يوم القيامة، وقد يكون سبباً لدخول النار - والعياذ بالله-، ففي الحديث (..وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[3] كما أن الأخلاق الذميمة سبب للبعد عنه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، ففي الحديث: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[4] والمتفيهقون: المتكبرون.

فقد جاء في كتاب الله آيات تخاطب المؤمنين بوصف الإيمان - والإيمان عقيدة

(١) د. صالح بن درباش الزهراني http://www.islamlight.net

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري / صحيح الترمذي ٢٠١٨.

(٣) صحيح مسلم /٢٦٠٧.

(٤) صحيح الجامع /١٥٣٥.

وعمل- حاثةً لهم على بعض الأخلاق الفاضلة أو ناهية لهم عن بعض الأخلاق الذميمة، وأن من صفات المؤمنين الالتزام بهذه الأخلاق فعلاً لحسنها، وتركاً لسيئها، مما يدل على ارتباط هذه الأخلاق بالإيمان ارتباطاً قوياً. ومن ذلك قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة النور: ٢٧).

كما جاءت السنة بمثل ذلك فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[١]، وقوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)[٢].

وبهذا يتبين لنا الرباط الوثيق بين العقيدة وبين الأخلاق وأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر التحلي بكل خلق فاضل والتخلي عن خلق ذميم، وبالتالي بيان جانب من جوانب الشمول والتكامل في هذا الدين العظيم.

وقد تناولت في هذا البحث مقدمة وفيها أهمية البحث وماهيته وأهدافه ثم تمهيد ويشمل أمرين: الأول: تعريف العقيدة لغة واصطلاحاً والثاني: تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً وثلاثة فصول وخاتمة. الفصل الأول ويشمل مكانة العقيدة والأخلاق في الإسلام، وتحته مبحثان: الأول: مكانة العقيدة في الإسلام. الثاني: مكانة الأخلاق في الإسلام أما الفصل الثاني ويتناول العلاقة بين الأخلاق والعقيدة وفيه مبحثان: الأول: ارتباط الأخلاق بالإيمان باليوم الآخر.الثاني: أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق، أما الفصل الثالث فتناول أخلاق أهل السنة نظرياً وتطبيقياً. وتحته مبحثان: الأول:

(١) سنن الترمذي ١٢٠٩.

(٢) صحيح البخاري/ ٦٤٧٥.

الجانب العلمي النظري والثاني: الجانب العملي التطبيقي، ثم خاتمة وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

سائلا الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، والله الموفق.

* * *

التمهيد

تعريف العقيدة لغة واصطلاحاً:

العقيدة لغة:

قال ابن فارس: العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شَدّ وشِدّةٍ وُثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها[1]. وهي تعني الإحكام والتأكيد[2].

فهي في اللغة تطلق ويراد بها:

١ـ العزم المؤكد. ٢ـ الجمع. ٣ـ النية. ٤ـ التوثيق للعقود. ٥ ـ ما يدين به الإنسان سواء كان حقاً أو باطلاً[3].

العقيدة من العقد؛ وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة، والتماسك، والمراصة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم. والعقد نقيض الحل، ويقال: عقده يعقده عقداً، ومنه عقدة اليمين والنكاح، قال الله تبارك وتعالى: (**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ**) المائدة: ٨٩.

كما أن العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل. والجمع: عقائد

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس (بيروت: دار إحياء التراث العربي: ١٤٢٢) ص٦٥٤.

(٢) انظر المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين (استانبول: المكتب الإسلامي: بدون تاريخ) ص ٦١٤.

(٣) المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة د. البريكان، (الخبر: دار السنة: ١٤١٦) ص ١٢١.

وخلاصة ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به؛ فهو عقيدة، سواء كان حقاً، أم باطلاً[١].

العقيدة اصطلاحاً:

يقول الجرجاني: والعقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل[٢].

ويقرر الدكتور البريكان في كتابه المدخل لدراسة العقيدة أن كلمة عقيدة مرت بثلاث مراحل؛ الأولى: وهو دور الموسوعية في المعنى وعدم الاختصاص، وهو المعنى اللغوي.

والمرحلة الثانية: وهي دور الفعل القلبي، وفيه تبرز العقيدة كمعنى يقوم بقلب العبد، وهو أخص من المرحلة قبله.

المرحلة الثالثة: وهي الدور الذي نضجت فيه العقيدة، وأصبحت علماً ولقباً على قضايا معينة، وهو دور الاستقرار وهو المعبر عنه "العلم بالأحكام الشرعية العقدية المكتسب من الأدلة اليقينية ورد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية"[٣].

و(العقيدة) هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك. أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده، ويجب أن يكون مطابقاً للواقع، لا يقبل شكاً ولا ظنا؛ فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة. وسمي عقيدة؛ لأن الإنسان يعقد عليه قلبه[٤].

العقيدة: هي الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته،

---

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري - ص٢٩.

(٢) التعريفات، الجرجاني، (بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤١٣) ت إبراهيم الإبياري، ص ١٩٦.

(٣) المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة، د. البريكان، (الخبر: دار السنة: ١٤١٦) ص٩،٨.

(٤) الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري - ص٣٠.

والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح. والتسليم لله تعالى في الحكم والأمر والقدر والشرع، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة والتحكيم والاتباع[1].

والعقيدة الإسلامية:

الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره، والتسليم لله تعالى في الحكم والأمر والقدر والشرع، ولرسوله – صلى الله عليه وسلم – بالطاعة والتحكيم والاتباع[2].

الأخلاق لغة واصطلاحاً:

الأخلاق لغة:

قال ابن فارس (ت ٣٩٥) في مقاييس اللغة: الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء والآخر ملاسة الشيء، ثم قال: ومن ذلك الخُلُق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قُدّر عليه[3].

وقال الفيروز آبادي ت ٨١٧ في القاموس المحيط: والخُلُق: بالضم وبضمتين: السجية والطبع والمروءة والدين[4].

وقال الراغب الأصفهاني: "الخلق والخلق في الأصل واحد... لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر بن عبد الكريم العقل – ص٩.

(٢) بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها د. العقل (الرياض: دار العاصمة: ١٤١٩) ص ١١، ١٢.

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (بيروت: دار إحياء التراث العربي: ١٤٢٢) ص ٣١١.

(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي ت٨١٧ ص ٧٩٢ ط دار الفكر.

بالبصيرة"[١].

وقال ابن منظور في لسان العرب: والخلق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة هي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع[٢].

ثانياً: تعريف الأخلاق اصطلاحاً:

قال أبو عثمان الجاحظ: "إن الخلق هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلُّم، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة"[٣].

وقال الماوردي: "هي غرائز كامنة تظهر بالاختيار، وتقهر بالاضطرار"[٤].

وقال الجرجاني في تعريفاته: هو: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سُمِّيت الهيئة: خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقاً سيئاً وإنما قلنا هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم.

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الأخلاق (ص٣٩). وانظر كذلك: لسان العرب (٨٦/١٠).
(٢) انظر لسان العرب – لابن منظور ج١٠ص ٢٨٦.
(٣) تهذيب الأخلاق (ص١٢).
(٤) تسهيل النظر وتعجيل الظفر (ص٥).

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء[1].

وقيل:"هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير والشر في سلوك ما"[2]، أو هو "علم التعرف على الحقوق والوجبات"[3].

والأخلاقي: هو ما يتفق وقواعد الأخلاق أو قواعد السلوك المقررة في المجتمع[4] وقال عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني: ولدى التأمل وإمعان النظر يتبين لنا أن الخلق: صفة مستقرة في النفس - فطرية أو مكتسبة - ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

ثم فرّق بين الغرائز والأخلاق بأن الأخلاق آثارها في السلوك قابلة للحمد أو للذم خلافاً للغرائز[5].

وقال الماوردي: الأخلاق: غرائز كامنة، تظهر بالاختيار وتُقهر بالاضطرار[6].

وقال القرطبي: الأخلاق أوصاف الإنسان التي يتعامل بها غيره، وهي محمودة أو مذمومة فالمحمود على الإجمال أن تكون مع غيرك على نفسك فتنصف منها ولا تنصف لها وعلى التفصيل: العفو، والحلم، والجود، والصبر، وتحمل الأذى، والرحمة، والشفقة، وقضاء الحوائج، والتوادد، ولين الجانب، ونحو ذلك، والمذموم منها ضد ذلك[7].

(١) التعريفات للجرجاني ت ٨١٦ ص ١٣٦ ط دار الكتاب العربي.

(٢) انظر: دستور الأخلاق في القرآن لمحمد دراز (ص٣٥).

(٣) ينظر: الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة لأسعد الحمراني (ص١٥).

(٤) المعجم الوسيط لمجموعة مؤلفين ص ٢٥٢ ط المكتبة الإسلامية.

(٥) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني، (دمشق: دار القلم) ص ١٠.

(٦) تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لمجموعة من المختصين ج ٥ ص ١٥٧ط دار الوسيلة.

(٧) فتح الباري ج ١ ص ٤٥٦.

وقال علي فكري في تعريفه للأخلاق: (علم الأخلاق: هو العلم الذي يبحث عن حالة النفس، ونزوعها في أفعالها إلى الخير أو الشر، وعن الصفات الإنسانية عاليها وسافلها، وعن بقاء تلك الصفات في الإنسان وقبولها للتغيير[١]).

* * *

الفصل الأول
مكانة العقيدة والأخلاق في الإسلام

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: مكانة العقيدة في الإسلام:

العقيدة الإسلامية: هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والعقيدة الإسلامية: إذا أطلقت فهي عقيدة أهل السنة والجماعة؛ لأنها هي الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان[٢].

فالعقيدة من أهم المهمات وأوجب الواجبات، إذ فيها عقد القلب وعزمه وجزمه على توحيد الله بالعبادة، وإخلاص الدين له مما لا يقوم الدين إلا به.

فالعقيدة لها شأن عظيم، وشأو كبير، ومن تأمل نصوص الوحيين يجد العناية الكبيرة بهذا الأصل العظيم من أصول الإسلام ومبانيه العظام، ولهذا فلا عجب أنّ رسل الله

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، ١ / ٧ – ١٠؛ رجب ١٣٤٣هـ نقلاً عن موقع دعوة الإسلام نافذة مقالات كبار العربية.

(٢) الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري – ص٣.

وأنبياءه ــ من أولهم إلى آخرهم ــ بعثوا لدعاء العباد إلى توحيد الله بتوحيد العبادة، فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه قوله: "﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ الأعراف: ٥٩" ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ هود: ٢"، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ نوح: ٣[1].

بل إن مسألة الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ووسائله هي القضية الأولى التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بين الرسل وأممهم، قال تعالى مخبراً عما أرسل به جميع الرسل قال تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله - تعالى-: التوحيد ألطف شيءٍ وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأي شيءٍ يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوبٍ يكون، يؤثرُ فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا، أدنى شيءٍ يؤثرُ فيها، ولهذا تشو شهُ اللحظة، واللفظة، والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبهُ وقلعَ ذلك الأثر بضده، وإلاَّ استحكم وصار طبعًا يتعسرُ عليه قلعه)[2].

وقال تعالى: **(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)** النحل: ٣٦.

وقال تعالى: "﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ النحل: ٢.

فالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك - أي صحة العقيدة وسلامتها - هما الأصل الأول في دعوة المرسلين، من لدن نوح إلى محمد عليهم السلام، وهذه هي

(١) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، (الرياض: دار المغني: ١٤٢٤) عبد المحسن العباد البدر، ص ٤٩.
(٢) الفوائد ص ١٨٤.

الغاية الأولى التي بها تصلح كل شؤون الدنيا والدين، فإذا صحت العقيدة أذعن الناس لله وحده وأطاعوا رسله واستقاموا على شرعه على هدى وبصيرة ومن ثم يصلح كل شيء من أمورهم الدينية والدنيوية.

وهذا لا يعني أن الرسل لم يهتموا بالتحذير من المفاسد الأخرى، أو الحث على الفضائل الأخرى بل جاؤوا لأقوامهم بكل خير وحذروهم من كل شر.

لكن أعظم الفضائل توحيد الله تعالى وتقواه وأعظم المفاسد الشرك بالله إذ هو أعظم الظلم قال تعالى مخبراً عن لقمان في وصيته لابنه محذراً له من الشرك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه والشرك وضع للعبادة في غير موضعها.

بل إن من تأمل القرآن الكريم وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الدعوة وجد العناية بهذا الأصل العظيم من وجوه واضحة كل الوضوح فمنها:

- أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قضى غالب وقته في تقرير عقيدة التوحيد، فقد قضى ثلاثاً وعشرين سنة في الدعوة إلى الله – هي عهد النبوة – منها ثلاث عشرة سنة في مكة، جلها كانت في الدعوة إلى تحقيق (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والألوهية وحده لا شريك له ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وسائر الوسطاء، ونبذ البدع والمعتقدات الفاسدة.
- ومنها عشر سنين في المدينة كانت موزعة بين تشريع الأحكام وتثبيت العقيدة والحفاظ عليها وحمايتها من الشبهات، والجهاد في سبيلها، أي أن أغلبها في تقرير عقيدة التوحيد وأصول الدين.
- أن الرسول إنما قاتل الناس على العقيدة (عقيدة التوحيد) حتى يكون الدين لله

وحده، تلك العقيدة المتمثلة في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسـول الله، ومـع ذلك فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل الغاية من قتـال النـاس تحقيـق التوحيد وأركان الإسلام فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله - صـلى الله عليـه وسـلم - ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم إلا بحق الإسـلام، وحسابهم على الله"(١).

- إذن فمدار الخير على صلاح العقيدة فإذا صلحت استقام الناس على الحق والخير، وإذا فسدت، فسدت أحوال الناس واستحكمت فيهم الأهواء والآثام، وسهلت عليهم المنكرات.
- إذا تأملنا القرآن الكريم، المترل على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمـة للعـالمين ومنهاجاً للمسلمين إلى يوم الدين؛ وجدنا أن أغلبه في تقرير العقيـدة وتقريـر أصـولها وتحرير العبادة والطاعة لله وحده لا شريك له واتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

فإن من أول ما نزل به القرآن وأمر الله به رسوله - صلى الله عليـه وسـلم - أن يفعله هو أن يكبر الله تعالى ويعظمه وحده، وأن ينذر الناس من الشرك، وأن يتطهـر من الآثام والذنوب وغيرها ن ويهجر ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويصبر على ذلك كله قال تعالى: "قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ــ ٧]"(٢).

- ثم استمر القرآن الكريم، يتترل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سـائر العهد المكي لتثبيت العقيدة وتقريرها، والدعوة إلى إخلاص العبودية لله وحده، واتباع

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الحديث (٢٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، الحديث (٢٢).

(٢) انظر العقيدة – محمد الغزالي ص ٤٦.

رسوله – صلى الله عليه وسلم –.

- لذلك نجد أن أغلب القرآن الكريم في العقيدة: إما بصريح العبارة وإما بالإشارة، حيث إن معظم القرآن جاء في تقرير توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات وأصول الإيمان والإسلام، وأمور الغيب والقدر خيره وشره، واليوم الآخر، والجنة وأهلها ونعيمها، والنار وأهلها وعذابها (الوعد والوعيد) وأصول العقيدة تدور على هذه الأمور.

- وقد ذكر العلماء أن القرآن: ثلث أحكام، وثلث أخبار، وثلث توحيد. وهذا ما فسروا به قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن"[(١)]. فإن قوله: "قل هو الله أحد" اشتملت على أعظم التوحيد والتنزيه لله تعالى. وبهذا يتحقق القول: بأن القرآن الكريم، غالب آياته في تقرير العقيدة والدعوة إليها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها[(٢)].

المبحث الثاني: مكانة الأخلاق في الإسلام:

فإن الأخلاق في الإسلام لها منزلة سامقة، ومكانة رفيعة، كيف لا والله جل وعلا قد أثنى على نبيه بوصفه له بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ القلم: ٤ "بل ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[(٣)].

والنصوص في مكانة الأخلاق متضافرة متكاثرة، لأن المرء المسلم عليه حقوق للحق وحقوق للخلق، فحق الحق سبحانه عبادته وعدم الإشراك به والقيام بطاعته والانتهاء عن نهيه، وحقوق الخلق القيام بما لهم من حقوق ومن أعظم الحقوق معاملتهم

---

(١) سنن الترمذي – / ٢٨٩٤.

(٢) انظر بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها، د. العقل (الرياض: دار العاصمة: ١٤١٩) ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) مجموع فتاوى ابن باز٢/٢١٥.

بالأخلاق الفاضلة، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الخلق مكاناً علياً في الجنة إذ يقول النبي صلى الله عليه: "إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمفيهقون" قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال: "المتكبرون"[1].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة)[2]. وللمكانة العظيمة للأخلاق في الإسلام جعلها النبي صلى الله عليه وسلم قرينة التقوى في أكثر ما يدخل الناس الجنة فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟

فقال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج"[3].

ووصف النبي صلى الله عليه وسلم خيار هذه الأمة بقوله: إن خياركم أحاسنكم أخلاقا"[4].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعهد إلى أصحابه ويوصيهم بحسن الخلق، فعن أبي ذر – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[5].

(١) الترغيب والترهيب ٣٦/٤.
(٢) أخرجه الترمذي وصححه الألباني / جامع الترمذي ص ٣٣٤ ط بيت الأفكار الدولية وفي سنن الترمذي/ ٢٠٠٣.
(٣) جامع الترمذي ص ٣٣٤ط بيت الأفكار الدولية سنن الترمذي ٢٠٠٤.
(٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: صحيح البخاري ٦٠٣٥.
(٥) من حديث أبي ذر الغفاري المحدث: ابن حجر العسقلاني :الأمالي المطلقة - الرقم١٣١.

قال ابن القيم رحمه الله: "جمع النبي - صلى الله عليه وسلم - بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته"[١].

وقال ابن رجب رحمه الله: "وقوله صلى الله عليه وسلم: "وخالق الناس بخلق حسن"[٢]. هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم ومفقهاً وقاضياً، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره مما لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيراً ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته، إهمال حقوق العباد بالكلية أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً لا يقوى عليه إلا الكمّل من الأنبياء والصديقين[٣].

كما تمثل السلف الصالح الإسلام علما وعملا ومن أمثلة ذلك قول الإمام الصابوني - رحمه الله تعالى - في تقريره لعقيدة السلف: (ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام على اختلاف الحالات، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، واتقاء شر عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر)[٤].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، لمجموعة مؤلفين (جدة: دار الوسيلة: ١٤١٨) ج ٥ ص ١٥٨٤.
(٢) من حديث أبي ذر الغفاري: ابن حجر العسقلاني - الأمالي المطلقة - ١٣١.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (الرياض: توزيع دار العاصمة) ص ٩٨.
(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني، تحقيق نبيل السبكي ص ٨٦.

الفصل الثاني
العلاقة بين الأخلاق والعقيدة

المبحث الأول: علاقة العقيدة بالأخلاق:

العقيدة قوة باعثة على المعالي، رادعةٌ عن الدنايا، مُحَرِّضَةٌ على المَكْرُمَات، ناهيةٌ عن الفعَالِ القبيحات، والإيمان كلمة شاملة لكل ما يحبه الله ويرضاه، فكما أن الإيمان يشمل العقيدة والتوحيد كذلك هو يشمل الأخلاق والسلوك، وقد وجد مفهوم خاطئ عند كثير من الناس في هذه الأيام حيث يعتقدون بأن هناك انفصاماً نكداً بين الأخلاق والعقيدة، فالعقيدة شيء والأخلاق شيء آخر[1].

لذلك نجد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذْكِراً بالإيمان عند الحثّ على فعل الصالحات، وتَذْكِراً بالإيمان عند النهي عن السيئات؛ هذا الاقتران الذي نجده في الكتاب والسنة يجعلنا نوقن بالعلاقة الوثيقة بين الإيمان والأخلاق وتتجلى علاقة العقيدة [الإيمان] بالأخلاق من خلال أمرين :

الأول: الأخلاق الحميدة من ثمرات الإيمان: هناك علاقة طردية بين الإيمان والأخلاق، فكلما كان الإيمان صحيحاً وقوياً أثمر أخلاقاً حميدة، لذلك قال: (أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً)[2]، وفي آيات وأحاديث كثيرة ربط الشارع بين الإيمان وحسن الخلق، ومن أمثلة ذلك:

- **اقتضاء الإيمان للعدل:** قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) (المائدة:٨).
- **اقتضاء الإيمان للصدق:** قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ**

---

(١) انظر خالد الصادقي، الأخلاق والعقيدة، من موقع المختار الإسلامي، نافذة أخلاق وآداب.

(٢) من حديث أنس / الهيثمي – مجموع الزوائد – ٣٦/١.

الصَّادِقِينَ) (التوبة: ١١٩).

- **اقتضاء الإيمان للحياء:** (الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)[١]. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وستون شعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان)[٢].
- **اقتضاء الإيمان للكرم:** وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)[٣].
- **اقتضاء الإيمان للحب:** قال: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[٤].
- **اقتضاء الإيمان للصبر والشكر:** قال: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٥].

الثاني: منافاة الأخلاق السيئة للإيمان الكامل: ومن أمثلة ذلك:

- **منافاة السخرية والاستهزاء للإيمان:** قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** الحجرات:١١.
- **منافاة سوء الظن والتجسس والغيبة للإيمان:** قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

(١) صحيح الترغيب – ٢٦٣٦.
(٢) صحيح البخاري/٩.
(٣) صحيح مسلم/٤٧.
(٤) سنن الترمذي/ ٢٥١٠.
(٥) صحيح مسلم/ ٢٩٩٩.

اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) الحجرات: ١٢.

- **منافاة الكذب والإخلاف والخيانة للإيمان:** قال: (آية المنافق ثلاثٌ؛ إذا حدّث كذب، وإذا وعَدَ أخلف، وإذ ائتمن خان)[١].
- **منافاة إيذاء الجار للإيمان:** قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره)[٢]، ويقول: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقه – أي أذاه –)[٣].

وهذه مجرد أمثلة تؤكد إنَّ الأوامر التي وردت في الكتاب والسنة وتعلقت بالصلاة والصيام لا تنفصل عن الأوامر التي تعلقت بالصدق والعدل، ولا بد من تعظيم شعائر وشرائع الله وأن نقول: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) البقرة: من الآية ٢٨٥.

وتتأكد علاقة الأخلاق بالإيمان فيما ورد في الحديث "الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٤]، فالإيمان شعب، ويزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأهل الإيمان يتفاضلون ويتفاوتون في درجات الإيمان، وإذا كان الحياء شعبة من الإيمان فعدم الحياء شعبة من شعب الكفر، وقس على ذلك الكذب والغدر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ما خلاصته: "إذا كان الإيمان أصله

(١) صحيح البخاري رقم ٢٦٨٢.

(٢) صحيح البخاري رقم ٦٠١٨ .

(٣) صحيح البخاري رقم٦٠١٦ .

(٤) صحيح مسلم /٣٥.

الإيمان الذي في القلب، وأنه لابد فيه من شيئين: الأول تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته وهذا هو التوحيد، وآخر عمل القلب وهو التوكل على الله وحده ونحو ذلك من حب الله ورسوله وحب ما يحب الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده كانت أعمال القلب من الحب والإخلاص والخشية والتوكل ونحوها داخلة في الإيمان بهذا المعنى وكانت الأخلاق الكريمة داخلة فيه أيضاً وأما البدن فلا يمكن أن يتخلى عن مراد القلب لأنه إذا كان في القلب معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولهذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"(١).

إن الإيمان بذلك هو مناط تكوين القيم الخلقية والاجتماعية ونحوها، وهو أيضا مصدر الإلزام الخلقي، لأنه هو المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمستحكم في أحاسيسه ودوافعه. إن الإيمان قول وعمل، والأخلاق الكريمة أقوال وأفعال لا تنفك عن معنى الإيمان، فالإيمان هو البر والهدى والتقى والإسلام والبصيرة وهو أيضاً العلم النافع والعمل الصالح.(٢)

والسؤال المهم: ما علاقة العقيدة بالأخلاق؟ ألا يمكن أن يكون للناس أخلاق طيبة بلا عقيدة؟!

نعم، قد يوجد أخلاق عالية مُثلى كما كانت عند عرب الجاهلية وعند المجتمعات غير المسلمة أحياناً ولكنّ هذا سببه أن النفس تحتجز رصيدها الخُلُقي بحكم العادة والتقليد أمداً طويلاً، بعد أن تكون قد فقدت الإيمان كجزء من العقيدة؟.. وقد تحتجزه فترة على وعي منفصلاً عن العقيدة، على أنه شيء ينبغي في ذاته أن يقوم.

ولكن النتيجة الحتمية واحدة في النهاية.. إنه ما دامت العقيدة قد انحرفت فلا بد أن

---

(١) صحيح مسلم، ١٥٩٩ الإلمام بأحاديث الأحكام ٨١٨/٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم – ابن تيمية ج٣ – ٢٣.

تنحرف الأخلاق أخيراً وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فلا بد أن تموت.

وغاية المسلم الأساسية في أخلاقه، أن يحقق مرضاة ربه، ذلك أن هدف المؤمن الأول من أعماله كلها هو ابتغاء وجه الله - جل وعلا - فقد أمره - سبحانه وتعالى - بذلك، وعده بالجزاء الأوفى على أعماله الخيرة يوم القيامة. قال- تعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًيَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

كما أن المسلم يحقق سعادته في الدنيا؛ يقول - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ النور: ٥٥.

وإذا تفحصنا العلاقات الاجتماعية في حياتنا المعاصرة نجد أن الاضطراب في السلوك هو الظاهرة السائدة، وأن الابتعاد عن الاستقامة مما تعج به أكثر المجتمعات الحديثة، وهذا دليل واضح ومؤشر قوي على ابتعاد الناس - حتى كثير من المسلمين - عن صفاء عقيدهم المؤثرة والتزامهم المنضبط بتوجيهاها.

المبحث الثاني: أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق:

ربط الإسلام بين الإيمان والأخلاق ربطاً قوياً، ونلاحظ ذلك في نصوص كثيرة مثبتة في الكتاب والسنة.

ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت[١]) وقوله - صلى الله عليه ومسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً[٢]).

إن قرن الإيمان بحسن الخلق، والسلوك الرفيع أمر يلفت النظر إلا أن كثيراً من

(١) صحيح الترغيب٢٥٦٦.

(٢) تخريج الكشاف- ٣٨٨/٢.

المسلمين يهملون هذا الجانب، وفي هذه الأيام بشكل ملحوظ.

فبينما كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا آية فيها تكليف سارعوا إلى تطبيقه، وإذا نزل تحريم لأمر انتهوا عند ذلك من صدق الإيمان وصلابة العقيدة..

وقد عرفنا من كتب السيرة في قضية تحريم الخمر، كيف أسرع المؤمنون إلى إراقة الخمور في شوارع المدينة النبوية.

وهنا سؤال مهم يطرح نفسه: وهو إذا كان للعقيدة هذا الدور الفعال في توجيه السلوك. فلماذا لا نرى ذلك الأثر في واقع المسلمين الآن؟!

إننا نجد البون شاسعاً بين ما يدّعون من عقيدة وبين ما يسلكون ويتصرفون به في المعاملات والسلوك.

والحقيقة: أن الدعوى شيء والإيمان الحقيقي شيء آخر؛ إذ إن الإيمان حقيقة وكل حقيقة لها علامة، وعلامة الإيمان العمل به، وإذا دخل الإيمان القلوب، واستقر فيها نبضت بالحيوية، ودفعت النفوس إلى العمل بموجبها..

والاختبار في هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فمعيار صدق الإيمان هو العمل الصالح، والإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل، والاعتقاد الصحيح يدفع إلى السلوك الطيب والخلق الحسن.

إن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، فالرجل المعوج السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد يصف الرسول – صلى الله عليه وسلم – حاله بأنه بعيد عن الإيمان بعيد عن الحياء، يقول – عليه الصلاة والسلام:

(والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: مَن يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه) ويقول – صلى الله عليه وسلم – تقريراً لهذه المبادئ الواضحة في

صلة الإيمان بالخلق القويم: (ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال: إني مسلم!، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)[1].

لقد أصبحت الشكوى مريرة لما أصاب الناس في العصور المتأخرة من انهيار في الأخلاق، واضطراب في الموازين، فالجار يشكو جاره، والأمانة ضاعت بين الناس، والمراوغة راجت سوقها، والتعلق بمتاع الدنيا فاق كل القيم عند كثير من البشر، وإنه لخطر عظيم ينذر بالشرور والفوضى، وإن ذلك لدلالة واضحة على فساد التصور وضعف الإيمان، فظهر بسبب ذلك انفصام نكد وازدواجية بين مفهوم الإيمان ومقتضياته.

ومن هنا يلزم الدعاة والمربين أن يتنبهوا لهذا الخطر، وأن يبينوا للناس حقيقة ما هم فيه، وأن الإيمان الصادق لا يعني حفظ بعض المتون في العقيدة أو حتى تعلُّمها إذا لم يتمثل المرء أخلاقياتها..

بل لابد من تمثل العقيدة وتشرُّبها، وأن تتحول إلى واقع عملي في الحياة والتعامل بين الأنام.. تأسياً بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين تحولوا إلى نماذج فريدة سلوكاً وإخلاصاً وطهراً[2].

إذن فالأخلاق ترتبط بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً يفوق حد التلاحم والتمازج ويستحيل معه تصور انفكاك إحداهما عن الأخرى بحيث يمتنع تخيل أخلاق مجردة عن العقيدة، أو عقيدة مجردة عن الأخلاق، مما يجعلنا نوقن أن كل الخصائص الأخلاقية المنحرفة هي - لا محالة - إفراز عقائد منحرفة، بينما الأخلاق النبيلة تظل دليلاً ساطعاً على انبثاقها وانبعاثها من وحي عقيدة نقية نائية عن التحريف وإيحاءات القصور البشري، وفي

---

(١) صحيح النسائي / الرقم ٥٠٣٨

(٢) انظر محمد الناصر، أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق، مجلة البيان، العدد (٤٢) ص ٢٣، صفر ١٤١٢.

الوقت ذاته: توقن أن الأخلاق المنحرفة برهان على وجود الأخلاق المستقيمة كالنقود المزيفة تكون دليلاً على وجود النقود الصحيحة.

والسرد القرآني للقيم الأخلاقية يُعَضِّدُ هذه الرؤية، ويبين بداهتها ونصاعتها لكل متأمل يتلو آيات القرآن بتدبر وتفكر، حيث نجد نعوت الكمال الإنساني وخصال أخلاقه الحميدة محاطة بصفاء العقيدة ونقاء التصور ووضوح العبودية لله رب العالمين، بينما تأتي مفردات الأخلاق الذميمة وموبقاتها مقرونة بالانحراف العقدي والتشوش الفكري والارتكاس في مفاهيم الشرك؛ حيث: تقديس الأحجار والأشجار والأبقار والطواغيت، والانحدار دوماً إلى ما دون المكانة الإنسانية.

فالشرك في حد ذاته صفة أخلاقية تستجمع كل الشرور، وتتولد عنها كل الأخلاقيات الهابطة، وكل السلوكيات المنحرفة، لأنه منهج استكباري يستنكف صاحبه أن يكون عبداً لله، وقد كان أول سلوك من هذا القبيل ما جاهر به إبليس أمام الله (سبحانه) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وهكذا أضحى الاستكبار على الله، ومن ثم التعالي على عباده قريناً للشرك ورديفاً له، والذي تجلى في موقف إبليس مع الله (عز وجل) يتجلى لنا أيضاً في السلوكيات التي أبداها قوم نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) معه حين جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا، وبهذا النهج الأخلاقي بات المنحرفون يتواصون حتى صار من دأبهم توارث الاستكبار على الله والاستخفاف بالعباد وإرادة العلو والإفساد في الأرض، وهو دأب تعرضه علينا آيات القرآن كلما صورت لنا واقعاً عقدياً منحرفاً تنعته بالطغيان تارة، والاستكبار والعلو في الأرض تارة أخرى ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: ١٧]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ [القصص: من آية ٤]،

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]. وكل هذه النعوت صفات أخلاقية مقيتة لا يمكن أن تكون إلا مع الانحراف العقدي والارتداد عن عبادة الله (سبحانه وتعالى)، تتكاثر عنها كل الشناعات الأخلاقية من: قتل، وهتك، ونهب، وظلم، وإشاعة الفاحشة بين العباد، ففي مجتمعات الكفر وأنظمة الشرك تسود الطبقية، وتوطأ إنسانية الضعفاء، وتسخر طاقاتهم لخدمة الطغيان واستكبار الملأ، وفي مجتمعات الكفر والشرك تستشري الفاحشة بين الأفراد وتجد الحماية والرعاية، فما فعل قوم لوط سوى ممارسة غير أخلاقية ساقطة ظهرت ونمت في ظل الانحراف العقدي حيث كان قوم لوط أول مجتمع كافر مارس هذه الفعلة القبيحة، ونافح عنها وتعامل معها وكأنها خلق إنساني رفيع لا تستهجنه النفس البشرية ولا تأباه الفطرة السوية، وفي مجتمعات الجاهلية استساغ الناس وأد البنات، واضطهاد الضعفاء، وإكراه الإماء على البغاء، وتعاطي الربا والقمار والتآزر على الباطل حتى قال شاعرهم[1]: (من لا يظلم الناس يظلم)، وشعارهم (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) (بالمعنى الجاهلي).

إنه انتصار للإسلام الذي ينطلق في إصلاحاته الأخلاقية من حقيقة العبودية لله (عز وجل)، فطرة الله التي فطر الناس عليها - وهي حقيقة لا يضارعه فيها أحد، وقد تميز بها عن غيره - فيثير في النفس الإنسانية مكامن التدين ويوقظ فيها مواطن الفطرة، ومعاقل الإيمان ويعتقها من الخضوع لغير الله حتى إذا ما تخلصت من الشرك وشوائبه، وأيقنت أن الوحيين هما مصدر التلقي وهما مصدر التحليل والتحريم، انساقت دونما تلعثم أو تعثر لأخلاقيات الدين، فيضبط مسار حياتها، ويوجه حركاتها وسكناتها،

---

(١) انظر الشعر الجاهلي / ص ١٢٩.

وهذا النهج نراه في دعوة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ونراه في دعوة من قبله من الأنبياء، فقد كان الإصلاح النبوي في الرسالات السماوية يتوجه قبل كل شيء إلى تمكين مفاهيم العقيدة الصحيحة وتصويبها أولاً ليعقبها بعد ذلك تلقائياً تلقي أخلاقيات الإسلام والانصياع لها بنفس ملؤها الرضا والاطمئنان كما كان ذلك من جيل الصحابة (رضوان الله عليهم) لحظة تحريم الخمر، فالنهي عن كل خلق مشين لا يمكن أن يؤتي ثماره مالم يُسبَق سلفاً بتعميق العبودية لله (تعالى) وتثبيتها في الوجدان، لذا، نلاحظ التوجيه الرباني في القرآن الكريم يجعل مسألة تصحيح الانحراف العقدي والبراءة من الشرك في مستهل الأخلاقيات الضرورية التي يلزم التعهد بالتزامها عند إرادة الانضمام إلى مجتمع الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ولا يفصل الإسلام تقريراته الأخلاقية عن قضية العبودية لله رب العالمين، لتنال عظمتها وقدسيتها من عظمة هذه القضية ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالخصائص الأخلاقية الحميدة التي تضمنتها سورة الإسراء من: طاعة الأبوين، وإقامة المكيال والميزان بالقسط، والبعد عن: الإسراف والتقتير، والقتل، والزنا، وأكل مال اليتيم، والتقول على الناس، والسير خيلاءً ومرحاً، وما أمرت به من الوفاء بالعهد، هي نموذج لكثير من الآيات القرآنية التي تعالج قضايا الأخلاق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في إطار العقيدة، وهي خصائص تتعرى عن قيمتها الأخلاقية إذا أقصيت عن محيطها العقدي، أو طرحت في قوالب عادية، أو قدمت ضمن توجيهات دين

محرف، وتضعف هذه المعاني الأخلاقية في النفس تبعاً للوهن الذي يعتري العقيدة (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)(١).

ولهذا كان من أخلاقيات النفاق - كما ورد في السنة -: الكذب في الحديث، والإخلاف في الوعد، والخيانة في الأمانة، والغدر في العهد، والفجور في الخصومة، كما أن الفِرَق المبتدعة التي انحرفت عن مسار أهل السنة والجماعة تنفرج عندها زاوية الانحراف الأخلاقي بقدر انحرافها عن منهج العقيدة الصحيحة، ففي التصوف المنحرف نجد الوله بالمردان، والافتراء على الله ورسوله، وفي منهج الرفض يتضخم التدين بازدراء الصحابة، ويتبوأ التخلق بأخلاقيات الكذب باسم التقية مكاناً علياً، كما أن كل أموال الناس - بزعم استحقاق الخمس - يعد من صميم المعتقد الرافضي، وعلى قسط من هذه الأخلاقيات ينطوي التوجه الخارجي القائم على قتل أهل الإسلام، وترك أهل الأوثان.

وفقه الأخلاق ينبغي أن يكون على ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، حيث يثير في النفس مكامن الدين ويوقظ فيها مواطن الفطرة ويجعل خضوعها لله وحده، وذلك كله ضروري لنجاح مسيرتنا الدعوية، وأهدافنا الإصلاحية، وإن أي توجه دعوي لا يعي هذه الحقائق ولا يوليها اهتماماته حري به أن يعيد النظر في مفاهيمه(٢).

إن المتمعن في أحوال الناس يجد كثيرا من المسلمين يغفل عن الاهتمام والاحتساب في هذا الجانب، وقد يجهل الصلة الوثيقة بين محاسن الأخلاق وقضية الإيمان والعقيدة، فبينما تجد الشخص يظن أنه قد حقق التوحيد ومحض الإيمان تراه منطويا على ركام من مساوئ الأخلاق والنقائص التي تخل بإيمانه الواجب أو تحرمه من الكمال المستحب، كالكبر والحسد وسوء الظن والكذب والفحش والأثرة وغير ذلك، وقد يكون مع ذلك جاهلاً بضرر هذه الأمور على عقيدته وإيمانه أو غافلا عن شمولية هذا

(١) من حديث عروة / صحيح ابن حبان ١٨٢.

(٢) انظر د.جلال الدين محمد صالح، الصلة بين الأخلاق والعقيدة، مجلة البيان، العدد (٨٥) ص ٢٢، رمضان ١٤١٥.

الدين لجميع مناحي الحياة، كما قال تعالى:" قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"، إن تحقيق التوحيد إن تحقيق التوحيد وتكميل الإيمان ليس باجتناب الشرك الأكبر فحسب بل باجتناب كل ما ينافي العقيدة وكل ما يخل أو يقدح في كمال التوحيد والإيمان(١).

وفي الجملة من يتأمل حال السلف وكيف كان ارتباط العقيدة بالأخلاق عندهم يجد البون الشاسع والفرق الكبير بيننا وبينهم في أثر العقيدة على الأخلاق.

إنّه لا شيء يضبط السلوك ويزكي النفوس ويأطر النفس على محاسن الأخلاق وترك سيئها غير توحيد الله عزّ وجل والخوف منه سبحانه ورجاء ثوابه، ومراقبته في السرّ والعلن، والشعور باطلاعه عزّ وجل على خفايا القلوب ومنحنيات الدروب، وهذا كلّه لا يتأتي إلا بالتربية على التوحيد ومعرفة أسماء الله عزّ وجل وصفاته ومقتضياتها، والتعبُّد له سبحانه بها ممَّا يكون له الأثر في ظهور آثارها على أخلاق العبد وسلوكه(٢).

وإذا لم يوجد هذا الشعور وهذه التربية على العقيدة فإنّه لا تنفع أيّة محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك النّاس، مهما وضع من النظم والقوانين والعقوبات، فغاية ما فيها ضبط سلوك الفرد أمام النّاس فإذا غاب عن أعينهم ضاعت الأخلاق واضطربت القيم، وهذا هو الفرق في علاج انحرافات النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله عزّ وجل القائم على تربية النّاس على العقيدة وبين المناهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله عزّ وجل(٣).

* * *

---

(١) انظر د. إبراهيم الدويش، طريقنا للقلوب، خطبة ضمن الخطب في موقع المنبر، رقم الخطبة ٢٠٦٦.

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني، تحقيق نبيل السبكي ص ٨٦.

(٣) انظر عبدالعزيز الجليل، الأخلاق وصلتها بالعقيدة، مقال في موقع (لها أون لاين) ضمن نافذة آراء وبحوث، بتاريخ ١٤٢٤/١١/٤.

الفصل الثالث
أخلاق أهل السنة والجماعة

وتحته مبحثين:

المبحث الأول: الجانب العلمي النظري:

أولى أئمة أهل السنة في كتب العقائد هذا الباب عناية خاصة ويجعلونه مما يرتبط بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً ولذا ذكروه فيما صنفوه من كتب العقائد وتقريرها.

فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول في الواسطية: "ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون أن أكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً؛ ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والرفق بالمملوك.

وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأمور، وينهون عن سفسافها"[1].

ويقول رحمه الله كما في مجموع الفتاوى: "أهل السنة والجماعة هم حملة ميراث النبوة في جانبيها العلمي والعملي، ولا شك أن أبرز الجوانب العملية في الهدي النبوي هو الجانب الأخلاقي، ولذلك فإن أخلاق النبوة - من الرحمة ومحبة الخير للناس واحتمال أذاهم، والصبر على دعوتهم إلى آخر ذلك.. هي المنبع الذي يستقي منه أهل السنة خصائصهم السلوكية والأخلاقية، والتي لا تقل أهمية - في منظور الحق - عن ميراث العلم والهدي الذي اختص به الله هذه الفرقة الناجية بفضله ورحمته.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعثه الله تعالى هدىً ورحمةً للعالمين، فإنه كما

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرح العلامة محمد خليل هراس، ت علوي السقاف (الخبر: دار الهجرة) ص ٢٥٨.

أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية.، فإنه أرسله بالإحسان إلى النـــاس، والرحمة لهم بلا عوض، وبالصبر على أذاهم واحتماله فبعثه بالعلم والكرم والحلم: عليم هاد، كريم محسن، حليم صفوح.

فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب، ويدلّها على صلاحها في الـدنيا والآخـرة بـلا عوض، وهذا نعت الرسل كلهم وهذه سبيل من اتبعه، وكذلك نعت أمتــه بقولــه: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران ١١٠)، قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس: تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة، فيجاهدون - يبـذلون أنفـسهم وأموالهم - لمنفعة الخلق وصلاحهم، وهم يكرهون ذلك لجهلهم. مــن حــديث أبي هريرة رضي الله عنه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام[١]، كما قال أحمد في خطبتـه: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنـور الله أهل العمى فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فمـا أحـسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!.. إلى آخر كلامه[٢].

وهو -سبحانه وتعالى- يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها، وهو يحب البـصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، وقد قيل أيضاً: وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات، ويحب السماحة ولو بكف من التمرات)[٣].

كما يقرر الإمام أبو عثمان الصابوني هذه المعاني بقولـه واصـفاً أهـل الـسنة: "ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام، وإفشاء الـسلام، وإطعـام

(١) صحيح البخاري: ٤٥٥٧.

(٢) ابن القيم - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ط١- ١٣٥.

(٣) مجموع الفتاوى ج ١٦ ص ٣١٣-٣١٧.

الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب، والمنكح، والملبس، والسعي في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع واتقاء سوء عاقبة الطمع، ويتواصون بالحق والصبر"[1].

فهم يهتمون بأمور المسلمين ويسعون في نصرهم، وأداء حقوقهم، وكف الأذى عنهم، ورفع الظلم الواقع عليهم، ويشاركونهم أفراحهم، ويشاطرونهم أتراحهم، منطلقين بذلك من قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ "التوبة: ٧١ .

وهم حريصون كل الحرص على وحدة المسلمين، و لم شعثهم، وجمع كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم. وهم أوسع الناس أفقاً، وأبعدهم نظراً، وأرحبهم بالخلاف صدراً، وأكثرهم للمعاذير التماساً، وهم قد يختلفون في بعض المسائل الاجتهادية، مع بقاء الألفة والمودة والمحبة فيما بينهم، وقد يحتاجون إلى الردّ على بعض، ولكن في حدود الأدب واللباقة، بعيداً عن الإسفاف والصفاقة.

وأهل السنة متوادون متحابون، يترحم بعضهم على بعض، ويذب بعضهم عن بعض، ويدعو بعضهم لبعض، وما ذاك إلا لحسن معتقداهم، وصلاح أعمالهم.

ومما يميزهم العدل مع الخلق والوسطية في شتى الأمور ومن ذلك وسطيتهم في الأخلاق[2]، إلى غير ذلك من نبيل أخلاقهم وكريم خصالهم مما تفيض به مؤلفاتهم

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث، الصابوني، ت د. الجديع (الرياض: دار العاصمة: ١٤١٩) ص ٢٩٧.

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة، مفهومها، خصائصها، خصائص أهلها، محمد الحمد (الرياض: دار الوطن: ١٤١٦) ص ٥٣ وما بعدها.

ومصنفاهم إما حثاً نظرياً أو واقعاً عملياً.

المبحث الثاني: الجانب العملي التطبيقي:

إن الناظر في أخلاق علماء أهل السنة، يجد أخلاقاً عالية، ونفوساً كريمة، ولعل السرّ في ذلك هو اقتدائهم بمن أثنى الله عليه في كتابه بقوله: "﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ القلم: ٤. أزكى الخلق، وأشرفهم محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – الذي حوى الأخلاق من جميع جوانبها.

ولذا كان حقاً على كل من يقتدي بهذا النبي الكريم أن يقتدي به في جميع شؤونه من عبادات وأخلاق.

ولعلي أشير هنا إشارات سريعة، لحوادث أخلاقية رائعة سجلها لنا التاريخ، ممن سلك سبيل المرسلين وسار على سننهم وطريقتهم، فسجلوا لنا أحداثاً رائعة جديرٌ بنا الوقوف عندها وتأملها والتفكر فيها، لعل هذه الحوادث تشعل في النفوس كوامن الأخلاق والحث والحض على السير على طريقة أولئك الأفذاذ:

فهذا العالم الجهبذ شيخ الإسلام ابن تيمية علم من أعلام أهل السنة سخر وقته وعمره وقلمه في الذب عن حياض العقيدة ونصرها وقد بلغت في قلبه مبلغاً عظيماً ولهذا فكان تأثير العقيدة في أخلاقه واضحاً ويبرهن الإمام ابن كثير حين يسوق حادثة الإمام ابن تيمية مع من سعوا به وحاولوا الإيقاع به عند السلطان بل أفتوا بقتله.

يقول ابن كثير: "وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لّما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا في عزله ومبايعة الجاشنكير،

ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحداً منهم سوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً. فقال الشيخ: من آذاني فهو في حلّ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى عفا عنهم وصفح.

قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا[1].

وقال الشيخ علم الدين البرزالي: ولما دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر، لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيميّة من الأسكندرية معززاً مكرماً مبجلاً، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال بعد وصوله بيوم أو يومين، فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان في يوم ثامن الشهر، وخرج مع الشيخ خلق من الأسكندرية يودعونه، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة فأكرمه وتلقاه ومشى إليه في مجلس حافل، فيه قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم، ونزل الشيخ إلى القاهرة وسكن بالقرب من مشهد الحسين، والناس يترددون إليه، والأمراء والجند وجماعة كثيرة من الفقهاء والقضاة منهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع منه، فقال أنا قد حاللت كل من آذاني[2].

وتأمل كلامه رحمه الله في الصفح والعفو عمن أساء إليه:" تعلمون أن من القواعد العظيمة، التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات

(١) البداية والنهاية ضمن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع محمد عزيز شمس، وعلي العمران (مكة: دار عالم الفوائد: ١٤٢٢) ص ٤٣١

(٢) البداية والنهاية ضمن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع محمد عزيز شمس، وعلي العمران (مكة: دار عالم الفوائد: ١٤٢٢) ص ٤٢٩.

البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ الأنفال:١، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة. وجماع السنة، طاعة الرسول.

وإني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً؛ لا باطنًا، ولا ظاهرًا، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال، والمحبة والتعظيم، أضعاف أضعاف ما كان، كلٌ بحسبه، ولا يخلو الرجل، إمّا أن يكون مجتهدًا مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً.

فالأول؛ مأجور مشكور، والثاني؛ مع أجره على الاجتهاد، فمعفوٌ عنه، مغفورٌ له، والثالث؛ فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين...

وتعلمون أنّا جميعاً متعاونون على البر والتقوى، وواجبٌ علينا نصر بعضنا البعض، أعظم مما كان وأشد..

وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم"[1].

وكتب السير مليئة بمثل هذه الحوادث المشرقة من علماء أهل السنة، ولكن لعله يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ولعل نموذجاً واحداً كان له صولات وجولات في تقرير العقيدة والوقوف بوجوه أهل الأهواء والبدع، وكيف ارتبطت عنده العقيدة الصافية بالأخلاق الكريمة.

(١) مجموع الفتاوى ج ٢٨، ص ٥٣-٥٧.

ولو أننا رجعنا إلى سيرةِ سلفنا الصالح، لوجدناها خيرَ مثالٍ لهذا المنهج المتكامـــل. فإذا ما تم لنا إدراكُ هذا الأمر والالتزام به، فسوف تختفي من حياتنـــا - بـــإذن الله - تعالى - تلك الصور والمواقف المتناقضة، كما أننا لن نجد شخصًا على عقيدة الـــسلف في توحيد الألوهية، والأسماء والصفات، ومحاربة البدع، ثُمَّ هو في نفس الوقت يخالفُ سلوكهم، باقترافه للظلم والكذب، والغيبة والحقد، والشحناء واتباع الأهواء.

* * *

خاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

من المؤكد إنه لا شيء يضبط السلوك، ويزكي النفوس، ويأطرُ النفس على محاسن الأخلاق وترك سيئها، غير توحيد الله - عز وجل -، والخوف منـــه - ســـبحانه -، ورجاءَ ثوابه ومراقبته في السر والعلن، والشعورُ باطلاعهِ - عز وجل - على خفايـــا القلوب، ومنحنيات الدروب، وهذا كلهُ لا يتأتى إلاَّ بالتربية على التوحيد، ومعرفـــة أسماء الله - عز وجل - وصفاته، ومقتضياهما والتعبد له - سبحانه - بها، مما يكونُ له الأثر في ظهور آثارها على أخلاق العبد وسلوكه.

وإذا لم يوجد هذا الشعور، وهذه التربية على العقيدة، فإنَّهُ لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس، مهما وضع من النظمِ والقوانين والعقوبات، فغاية مـــا فيها ضبط سلوك الفرد أمام الناس، فإذا غاب عـــن أعينـــهم ضـــاعت الأخـــلاق، واضطربت القيم، وهذا هو الفرقُ في علاج انحرافات النفس البشرية، والمجتمع الإنساني بين منهج الله - عز وجل -، القائم على تربية الناسِ على العقيـــدة، وبـــين المنـــاهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله - عز وجل -.

ومثالاً على ذلك ننقلُ ما كتبه سيد قطب- رحمه الله - تعالى- عن تحريم الخمر، وكيف عجزت أمريكا عن إقناع الناس بتركه، بينما انتهى المسلمون عن شربها بمجرد أن نهاهم الله - عز وجل - عنها. يقول - رحمه الله تعالى -: (أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة، فسنت قانونًا في سنة ١٩١٩سمي قانون "الجفاف"! من باب التهكم عليه، لأنَّهُ يمنع "الري" بالخمر!، وقد ظل هذا القانون قائمًا مدة أربعةَ عشر عامًا، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣"[١].

وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر، والإذاعة والسينما، والمحاضرات للدعاية ضد الخمر، ويقدرون ما أنفقتهُ الدولة في الدعاية ضد الخمر، بما يزيدُ على ستين مليونًا من الدولارات، وأنَّ ما نشرته من الكتبِ والنشرات، يشتملُ على عشرة بلايين صفحة، وما تحملتهُ في سبيلِ تنفيذِ قانون التحريم من مدةِ أربعة عشر عامًا، لا يقلُّ عن٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس، وسجن كذلك ٥٣٢. ٣٣٥ نفسًا، وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه، وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون.

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي، ببعض آياتٍ من القرآن، وهذا هو الفرقُ في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني، بين منهج الله، ومناهج الجاهلية قديمًا وحديثًا على السواء!

لقد تمت المعجزة؛ لأنَّ المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله فيها، حضورًا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان، أخذها جملة لا تفاريق، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة، فمتى يدرك هذه

---

(١) انظر الأخلاق - سيد قطب ط٢ الشروق - ١٢.

الحقيقة البسيطة، من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج غير منهج العليم الخبير؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير؟ متى؟ متى ينتهون عن هذا الغرور؟[1].

توصيات:

لقد أصبحت الشكوى مريرة لما أصاب الناس في العصور المتأخرة من انهيار في الأخلاق، واضطراب في الموازين، فالجار يشكو جاره، والأمانة ضاعت بين الناس، والمراوغة راجت سوقها، والتعلق بمتاع الدنيا فاق كل القيم عند كثير من البشر..

وإنه لخطر عظيم ينذر بالشرور والفوضى، وإن ذلك لدلالة واضحة على فساد التصور وضعف الإيمان، فظهر بسبب ذلك انفصام نكد وازدواجية بين مفهوم الإيمان ومقتضياته. ومن هنا:

- يلزم الدعاة والمربين أن يتنبهوا لهذا الخطر، وأن يبينوا للناس حقيقة ما هم فيه، وأن الإيمان الصادق لا يعني حفظ بعض المتون في العقيدة أو حتى تعلُّمها إذا لم يتمثل المرء أخلاقياتها..
- لابد من تمثل العقيدة وتشرُّبها، وأن تتحول إلى واقع عملي في الحياة والتعامل بين الأنام.. تأسياً بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين تحولوا إلى نماذج فريدة سلوكاً وإخلاصاً وطهراً.
- تحرر المسلم من العبودية لغير الله تعالى اقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ الفاتحة: ٥، تجعل الإنسان سعيداً مطمئناً فالإسلام يسعد من يعتنقه وترتاح له النفس ويرضى، تبني العزة والكرامة فلا ينحني المؤمن ولا يخضع ولا يذل لغير الله،

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٤٣) من سورة النساء.

تغرس فيه روح التضحية مثل صهيب الرومي ضحى بماله في سبيل الفرار بدينه، فالعقيدة تدفعه إلى الطهارة والعفة والصدق والأمانة وتنهاه عن الجبن والخيانة والكذب.

- أهمية إنشاء مجتمع مسلم موحد عالمي: إذ يجمعهم يتوجهون لـ: رب واحد. قبلة واحدة. وعبادة واحدة، فلا يتقيد بجنس دون آخر أو قبيلة أو شعب عن آخر.
- أهمية إنشاء مجتمع الحرية والمساواة والفكر السليم: قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٦، فهي توفر لأهل الكتاب حرية التدين والعبادة كما يتساوى أمام الشريعة الجميع (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[(١)].
- أهمية إنشاء مجتمع الأخلاق الفاضلة فهو مجتمع العفة والطهارة والصدق والنزاهة لا خوفًا من السلطان وإنما بالاعتقاد من الخوف من العزيز المنان.
- أهمية إنشاء مجتمع العمل والإنتاج لقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٧، والعمل من سبيل الخير عند الله ولذا على المؤمن أن يعمل ويجتهد ليتقرب إلى الله تعالى ولينال الثواب والأجر.
- إذا كانت الحضارة: هي النتاج الأدبي والفني والعلمي والاقتصادي والزراعي والصناعي لرقي الفرد والمجتمع.
- وإذا كانت مقومات الحضارة الإسلامية هي: (العقيدة الصحيحة، العمل الصالح،

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٧٥.

التعاون الإنساني) فالاعتقاد بأن البشر جميعاً من أب واحد وأم واحدة مما يدفع إلى (الاحترام- العدل- المساعدة- الرحمة- التسامح مع غير المسلمين) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ المائدة: ٨ .

* * *

المصادر والمراجع

١. الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني، (دمشق: دار القلم: ١٩٩٠) .

٢. بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها، د. العقل (الرياض: دار العاصمة:١٤١٩).

٣. البداية والنهاية ضمن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع محمد عزير شمس، وعلي العمران (مكة: دار عالم الفوائد: ١٤٢٢).

٤. التعريفات، الجرجاني، (بيروت: دار الكتاب العربي: ١٤١٣) ت إبراهيم الإبياري.

٥. تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لمجموعة من المختصين ط١- ١٩٩٨ .

٦. تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، (الرياض: دار المغني: ١٤٢٤) ت عبد المحسن العباد البدر.

٧. جامع الترمذي ط بيت الأفكار الدولية- بيروت ١٩٧٩.

٨. جامع العلوم والحكم، ابن رجب (الرياض: توزيع دار العاصمة: ١٤١٧) .

٩. شرح العقيدة الواسطية لا بن تيمية، شرح العلامة محمد خليل هراس، ت علوي السقاف (الخبر: دار الهجرة: ١٩٩٨) .

١٠. عقيدة أهل السنة والجماعة، مفهومها، خصائصها، خصائص أهلها، محمد الحمد (الرياض: دار الوطن: ١٤١٦) .

١١. عقيدة السلف وأصحاب الحديث، الصابوني، ت د. الجديع (الرياض: دار العاصمة: ١٤١٩) .

١٢. فتح الباري ج ١ -١٩٩١ .
١٣. الأربعون حديثاً في الأخلاق مع شرحها لأحمد معاذ حقي. ط دار طويق١٤١٧.
١٤. القاموس المحيط للفيروز آبادي ت٨١٧ ط دار الفكر ١٤١١.
١٥. مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١- ط الشروق ١٩٩٢.
١٦. مجلة جمعية مكارم الأخلاق، الكويت ١ / ٧ -١٠؛ رجب ١٣٤٣هـ نقلاً عن موقع دعوة الإسلام نافذة مقالات كبار العربية.
١٧. المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة، د.البريكان، (الخبر: دار السنة: ١٤١٦) .
١٨. المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين (استانبول: المكتب الإسلامي:بدون تاريخ) .
١٩. مقاييس اللغة، ابن فارس (بيروت: دار إحياء التراث العربي: ١٤٢٢) ص٦٥٤.
٢٠. موسوعة نضرة النعيم، لمجموعة مؤلفين (جدة: دار الوسيلة: ١٤١٨).
٢١. د. إبراهيم الدويش، طريقنا للقلوب، خطبة ضمن الخطب في موقع المنبر، رقم الخطبة ٢٠٦٦.
٢٢. د. جلال الدين محمد صالح، الصلة بين الأخلاق والعقيدة، مجلة البيان، العدد (٨٥) ص ٢٢، رمضان ١٤١٥.
٢٣. خالد الصادقي، الأخلاق والعقيدة، من موقع المختار الإسلامي، نافذة أخلاق وآداب.
٢٤. عبد العزيز الجليل، الأخلاق وصلتها بالعقيدة، مقال في موقع (لها أون لاين) ضمن نافذة آراء وبحوث، بتاريخ ٤/ ١١/ ١٤٢٤.
٢٥. محمد الناصر، أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق، مجلة البيان، العدد (٤٢)

ص ٢٣، صفر ١٤١٢.

إضافة إلى عدد من المراجع لم يتم ذكرها لندرة الرجوع إليها.

* * *